

ابن خلدون ونظرية اكتساب اللغة الثانية

الدكتور تاج الدين يوسف

Department of French, Portuguese and Arabic Languages
and Literatures, (Arabic Unit), Kwara State University, Malete.

Email: Toyin_72@hotmail.com, Tajudeen.Yusuf@Kwasu.edu.ng,

Tel No: +2348167426648

المستخلص :

لا شك أن الغرب قد قدموا في حقل اللسانيات المعاصرة، جهودا لا يستهان بها، فاهتموا بدراسة اللغات الإنسانية وخصائصها وتراكيبها وبينوا ما بين هذه اللغات من التشابه والتباين كما ودرسوا أصوات اللغات وما لها من خصائص وصفات، وكذلك تناولوا بالحديث عن اكتساب اللغة عند الإنسان. وعلى الرغم من هذه الإسهامات، فإن القارئ في التراث العربي يجد أن العرب من قديم الزمان قد تعرضوا لكثير من القضايا اللغوية الحديثة، بل ما أنجزه العرب وخاصة في مجال الدراسات الصوتية من تقسيم للأصوات وتصنيفها ووصفها بحسب خصائصها وسماتها قد هيا السبيل للصوتيات الحديثة. فهذه الدراسة تهدف إلى إبراز إسهامات عبقرية ابن خلدون في مجال علم اللغة التطبيقية على وجه التحديد نظريته في اكتساب اللغة، فقد وضع لنا أسسا ومبادئ من خلالها تكتمل الملكة اللغوية الراسخة في الإنسان، ومن هذه الأسس كثرة الحفظ، ومخالطة أصحاب اللغة (البيئة اللغوية)، وكثرة التكرار والممارسة.

المقدمة :

إن الدراسة عن اكتساب اللغة الثانية، Second Language Acquisition والتي تعالج الطريقة التي يتعلم بها الإنسان لغة غير لغته الأم، سواء كان هذا التعلم داخل الفصل الدراسي أم خارجه، لمن البحوث اللسانية التطبيقية الحديثة. وقد ازدهر هذا الحقل المعرفي في النصف الثاني من القرن العشرين على وجه التحديد على أيدي اللسانيين الغربيين. وعلى الرغم من حداثة هذه المعرفة، فقد أفادت القراءة في التراث اللغوي العربي أن بعض العلماء العرب وخاصة في القرون الوسطى قد تعرضوا لهذه الظاهرة اللغوية التطبيقية. فلابن خلدون

العالم الاجتماعي العربي رأي في تعلم اللغة الأجنبية واكتسابها. كان عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) مؤرخاً من شمال أفريقيا، وهو تونسي المولد، يُعدّ مؤسس علم الاجتماع الحديث ومن أبرز علماء التاريخ، وقد اشتهر بكتابه "المقدمة" بين العرب والغرب لما احتواه الكتاب من فنون العلوم والمعارف، وقد تُرجم الكتاب إلى لغات مختلفة لأجل ما يحتويه من غزارة العلوم والمعارف^١.

فقد تعرض ابن خلدون لهذه الظاهرة اللسانية في مواضع متعددة في معرض كلامه عن اللغة في "المقدمة"، واستهل حديثه عن اللغة بإبراز ماهية اللغة ومفهومها حيث يرى أن اللغات كلها شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة ونقصها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التركيب، فاللغة في نظرية ابن خلدون فعل إنساني يقوم الفرد بتأديته عبر عمليات وحركات اللسان، وهذا عمل نابع من إرادة فكرية والقصد منها الإفادة بالكلام، فالإنسان يستعمل اللغة للتعبير عن المواقف من الظروف المحيطة به على حسب إرادته فتظل سجية فيه للتواصل المستمر. فهذه النظرية الخلدونية توافق ما ورد عن علماء الغرب في الدراسات اللسانية التطبيقية.

مفهوم اللغة عند ابن خلدون:

أول ما يقدمه ابن خلدون في دراساته اللغوية التعريف باللغة، إذ يرى أن اللغة إنما تكتسب عن طريق التعلم وليس بالفطر، وأنها ملكة تشبه بالصناعة، يقول: "اعلم أن اللغات كلها شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني"^٢. ويستنبط من هذا التعريف أن اللغة وسيلة يمتلكها المتكلم ويعبر بها عن آرائه وأفكاره ومتطلباته، وهي خاصية يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات على وجه الأرض، هذا واللغة وسيلة يستخدمها الإنسان بغية التواصل مع غيره من أفراد المجتمع، وبها يعبر عن مشاعره وما يجول في صدره. وتصير اللغة ملكة وسجية عند المتكلم بها بعد أن يكتسبها الفرد ويمارسها فتستقيم في ذاته كأداة التعبير والتواصل^٣.

العوامل المساعدة في اكتساب اللغة:

اقترح ابن خلدون بعض العوامل التي تساعد المتعلم على اكتساب اللغة الثانية حتى تصير الملكة اللغوية طبيعية راسخة فيه، وهذه الاقتراحات والنظريات تتفق تماماً مع نظريات

اللسانيين المحدثين على اختلاف اتجاهاتهم. ومن العوامل المساعدة في تعلم اللغة الثانية من منظور ابن خلدون كثرة الحفظ أو المدخلات، والتكرار والاستمرار، وتجنب العكوف على حفظ القواعد، البيئة اللغوية كما نستعرضه فيما يلي:

١. كثرة الحفظ أو المدخلات :

من العوامل الأساسية التي تؤدي دوراً فعالاً في تعلم اللغة الثانية واكتسابها في نظرية ابن خلدون هو كثرة حفظ الثرة اللغوية، وهي ما اصطلح عليه المحدثون بكمية المدخلات التي يستقبلها المتعلم. وقد أخذ ابن خلدون موقفاً قوياً من أهمية المدخلات مؤكداً على أن كثرة الحفظ للنصوص اللغوية القديمة نظاماً ونثراً من أهم ما يساعد على اكتساب اللغة الثانية وهو يقول: "وجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبة فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم". وبكثرة الحفظ والاستعمال يتم اكتساب اللغة وتعلمها في النظرية الخلدونية. وهذه المصادر اللغوية التي أشار إليها ابن خلدون تتميز بعبارات واضحة غنية المضمون، إذ تتصل بحياة الإنسان اتصالاً وثيقاً، فضلاً عما تتميز به من بلاغة التعبير، وجمال الأسلوب، وصفاء اللغة واشتمالها على مادة ثقافة لغوية وإنسانية. وهذه النظرية تتفق تماماً مع نظرية "ستفين كارشن" العالم الأمريكي^٥. فقد أشار كارشن إلى دراسات قد أثبتت أن طول المدة التي يقضيها الفرد في بلدة أجنبية له علاقة بمستواه في اكتساب اللغة. وكذلك، إن كميات كبيرة من القراءة الاختيارية لها أثر إيجابي فعال في تعلم اللغة سواء من حيث القواعد أو الكلمات أو مستوى الكتابة، فالمدخلات هي الميكانيكيات التي يتعلم الناس عن طريقها اللغة^٦.

٢. التكرار والاستمرار:

وبالإضافة إلى ما سبق، يرى ابن خلدون أن الملكة اللغوية لا تحصل راسخةً ولا تكتمل في الإنسان إلا بالتكرار والممارسة. وهذا ما يسميه اللغويون المحدثون بالتفاعل الاجتماعي. وقد أشار إلى ذلك بقوله: "الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال"^٧. وبالتكرار تكون الملكة صفة راسخة، ويرى أصحاب النظريات التفاعلية أنه من أسباب رسوخ تعلم اللغة واكتسابها هو لتفاعل الاجتماعي، إذ إن اللغة ظاهرة اجتماعية، فحيث ما وجد قوم من بني البشر وجد عنهم لغتهم التي بها يتبادلون الأفكار فيما بينهم، والإنسان لا يتم له عيش سعيد إلا بالتفاعل

مع غيره. فاللغة أهم أداة رمزية وضعها المجتمع، والمملكة اللغوية بمفهومها العام عند ابن خلدون صفة راسخة في النفس تتم نتيجة الاستعمال، وتصير اللغة ملكة وسجية عند المتكلم بها بعد أن اكتسبها الفرد ومارسها فتستقيم في ذاته كأداة التعبير والتواصل.^٨

٣. تجنب العكوف على القواعد:

يرى ابن خلدون أن اكتساب اللغة لا يحتاج إلى كثرة الاهتمام بالقواعد النحوية والتركيز عليها وهو يقول: "العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العلم وليس هو نفس العلم"^٩، أي أن متعلم اللغة الثانية ليس في صالحه أن يعطي كل اهتمامه لتعلم القواعد النحوية. طبعاً، لا شك أن العلم بالقواعد النحوية والقوانين اللغوية هام في بناء الكفاءة اللغوية وخاصة في مجال تعلم اللغة الثانية حيث يتعلم الإنسان الضوابط التي يستعين بها في التراكيب كما يتعلم كيفية تطبيقها في التواصل مع الغير، ولكن مجرد معرفة المتعلم بالقواعد النحوية وحفظها لا يكفي وحدها لاكتساب اللغة والكفاءة للتواصل اللغوي الناجح، بل غالباً ما يكون عائقاً للأداء. ولكي يكون اكتساب اللغة طبيعياً بصورة فعالة، فلا بد من ممارسة تعبيرية مستمرة وتواصل اجتماعي في البيئة اللغوية الطبيعية تهدف إلى تنمية قدرات على التعبير والتواصل ثم تستقر القواعد بالتدرج في الأفهام في يسر وسهولة. ذلك أن اللغة وظيفتها الأساسية هي التعبير عن المعاني والأفكار لا الخوف من الوقوع في الأخطاء النحوية، فالقواعد ليست هي المقصودة لذاتها، ولكنها وسيلة يستعين بها الإنسان على تقويم اللسان والكتابة وصونها من الخطأ، وإن دراسة القواعد إنما تتم في ظل اللغة، وذلك باختيار أمثلتها وتدريباتها من النصوص الأدبية الأصيلة، والعبارات الجيدة التي تسمو بأساليب الطلاب، وتزيد ثقافتهم و ثروتهم اللغوية وتوسع دائرة المعارف^{١٠}.

٤. البيئة اللغوية:

فقد تنبه ابن خلدون في وقت مبكر أن البيئة الصالحة لتعلم لغة ما، هي البيئة الطبيعية، ويعني بذلك الاختلاط بأصحاب تلك اللغة الفصيحة حتى يستقيم اللسان. ويرى أن الاختلاط بالأعاجم يفسد اللغة، لذلك اشترط ابن خلدون أخذ اللغة بالاعتماد على التراث اللغوي والاختلاط بأهل اللغة وكان يقصد العرب الفصحاء. وفي ذلك يقول: "فمن خالط العجم أكثر ما كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد، لأن المملكة إنما تحصل بالتعلم"^{١١}. "فالتوسع في

استخدام الثروة اللغوية المكتسبة في البيئة اللغوية يساعد على التفاعل الجيد مع اللغة المستهدفة، وليس بحفظ الكمية الهائلة من القواعد النحوية، إذ إن التعلم الطبيعي للغة يتطلب المحادثة والتواصل مع أصحاب اللغة وفي البيئة اللغوية الحقيقية. ويرى ابن خلدون أن "المتكلم من العرب حيث كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمالاً لمفردات في معانها فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثملا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم"^{١٢}. ويرى بعض اللسانيين المحدثين، ومن بينهم ستيفن كراشن أهمية وضع التلميذ في البيئة التي تساعد في تحسين لغته معتمداً على نفسه وذلك بوضعه في بيئة طبيعية لأنه لا يتوقع أن يحصل متعلم اللغة الأجنبية على مستوى جيد من الكفاءة في الفصل وحده^{١٣}، ذلك لأن اللغة، كما يراها سوسير، ظاهرة اجتماعية الهدف منها التعبير، وهي مجموعة من النظم تمكن الأفراد من ممارستها للتواصل داخل مجتمع ما، ذلك لأن كل لغة تفترض وجود بيئة اجتماعية حيث نلمس فيها حاجة ملحة للتواصل بين أفرادها^{١٤}. ويؤكد تمام حسان هذا الرأي، إذ يرى ضرورة وضع متعلم اللغة الثانية في البيئة التي تربطه مباشرة بالعرف الاجتماعي، لأن العرف هو الذي يحدد المقاييس الاجتماعية، كما أنه هو المحدد الأساسي لمعايير الاستعمال في اللغة^{١٥}.

٥. الخاتمة:

تفيد القراءة في التراث العربي أن العرب كانت لهم إسهامات محمودة في الدراسات اللغوية الحديثة على اختلاف مجالاتها، ومن العلماء العرب الذين تعرضوا للقضايا اللغوية العالم الاجتماعي ابن خلدون. فقد وضع ابن خلدون آراء نموذجية في تعليم اللغة الثانية في كتابه الموسوم بـ"المقدمة"، تلك الآراء التي قد أفادت الدراسات اللغوية الحديثة، ومن الأساسيات التي تؤثر في اكتساب اللغة كمية المدخلات التي يستقبلها المتعلم. فقد وقف بعض علماء الغرب موقفاً قوياً على أهمية المدخلات، مؤكدين أن المدخلات لها أهميتها البالغة في اكتساب اللغة الثانية، وأن طول المدة التي يقضيها الفرد في بلدة أجنبية غالباً ما يكون لها دور في مستوى الكفاءة في اكتساب اللغة. ومن العوامل المساعدة على تعلم اللغة الثانية في نظرية ابن خلدون هو التكرار، وهو مهم في اكتساب اللغة وفهم تراكيبها ومفرداتها، ويجب أن يتم التكرار في مواقف طبيعية، وفي مواقف حيوية، كما يرى ابن خلدون ضرورة التقليد والاقتباس

في بدايات تعلم اللغة، ويقرر ابن خلدون حقيقة علمية أخرى هي أن فقدان الإعراب وعدم حفظ الكمية الهائلة من القواعد ليس بضائرٍ لمتعلم اللغة إذ هي وسيلة لا غاية، فيرى أنَّ الملكة صفة راسخة، ولا تتحقق هذه الصفة إلا بتكرار الأفعال، وللكميات الكبيرة من القراءة الاختيارية كذلك أثر إيجابي فعال في تعلم اللغة. ولذلك يلاحظ أن الطلاب الذين يدرسون في البلاد الأجنبية، ويعيشون مع عائلات تلك البلد غالباً ما يكونون أسرع من غيرهم في إتقان اللغة.

ومفهوم الملكة عند ابن خلدون هو قدرة المتكلم على امتلاك ناصية الكلام كابن اللغة ومن قراءة هذا النص لابن خلدون ندرك أن للعلماء العرب أثراً بالغاً في اللسانيات الحديثة بأبعد ما يتصور في الفلسفة اللغوية.

الهوامش والمراجع:

- 1- Abdesselam Cheddadi, Ibn Khaldun, UNESCO: International Bureau of Education, Paris,,, vol. XXIV, no. 1/2, 1994, p. 7-19.
- ٢- عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، مكة، المكتبة التجارية، ج٢/٢٦١، ١٩٩٧م
- ٣- زكريا ميشال. (١٩٨٧م). الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص ١١-١٤.
- ٤- ابن خلدون، المرجع السابق المرجع السابق، ج٢/٢٦٢.
- 5- Stephen Krashen D., "We Acquire Vocabulary and Spelling by Reading: Additional Evidence for the Input Hypothesis", *The Modern Language Journal*, 73 (4), 1989, 440-464
- 6- Byram Michael, *Routledge Encyclopedia of Language Teaching and Learning*. Taylor & Francis. pp., 2001, 413-415
- ٧- ابن خلدون، المرجع السابق، ج٢/٢٦١.
- ٨- زكريا ميشال، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، ص ١١-١٤.
- ٩- ابن خلدون، المرجع السابق، ج٢/٢٦٤.
- ١٠- سالم محمد مرشان وسعد حسين مقبول، النحو والصرف للمرحلة الثالثة، قبرص، دارالآن للطباعة والنشر، قبرص، (د.ت)، ص ٩
- ١١- ابن خلدون، المرجع السابق، ج٢/٢٦٢.
- ١٢- المرجع نفسه، ج٢/٢٥٨.
- 13- Rod Ellis. *Second Language Acquisition*. Oxford Introductions to Language Study. Oxford, New York: Oxford University Press. 1997, pp. 47-48, and Moerk E.L., "Corrections in first language acquisition: Theoretical controversies and factual evidence". *International Journal of Psycholinguistics*, 1994, 10: 33-58.
- ١٤- سوسير، فردينان دي. (د.ت). فصول في علم اللغة العام. ترجمة: أحمد نعيم الكراعين. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص ٣١.
- ١٥- تمام حسان، اللغة بين المعيار والوصفية، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٨٠م، ص ١١